

التقديم

بقلم الأستاذ محمد علي مصطفى

المفتش بوزارة المعارف ، ورئيس تحرير الصحيفة

جری العرف الصحفي أن يكون لرئيس التحرير كلمة التقديم ، وأن تنشر تلك الكلمة — مهما كانت قيمتها — في صدر الصحيفة التي يشرف على إصدارها ، وما كنت أعتقد أن صحيفة دار العلوم في حاجة إلى أن يقدمها إلى جمهور القراء أحد ، فانما يقدم المجهول الذي لا علم للناس به ، وأغلب ظني أن زملائي أعضاء لجنة التحرير يشاركونني في هذا الاعتقاد ، ولكنهم — لسبب لا أفهمه — ائتمروا فيما بينهم ، وفي جلسة لم أشهدها ، واجتمع رأيهم على أن يتركوا لي ولحضرة الأستاذ مدير الصحيفة الكراسي الأولى .

ووجد مدير الصحيفة ما يكتب — وعنده دائماً مدد فياض لا ينضب معينه ، من حلو الكلام ، وتمع الحديث ، وشائق الأخبار ؛ ولكنه أني إلا أن يكون عادلاً في القسمة ، فاخص نفسه بنصف الكراسي ، وترك لي نصفها الآخر ، وفكرت في الخلاص من هذا المأزق ، الذي دفعني إليه زملائي دفعا لارحمة فيه ، ولا لين معه ، واتبعتني نوبة من الشجاعة ، وتناولت القلم ، أوخيل إلى أن القلم جرى إلى بنائي ، وقدم فروض الطاعة . والآن ماذا أكتب ؟ وما البضاعة الجديدة التي أستطيع أن أعرضها على جمهرة القراء ؟ ليس عندي جديد ، ولكنني سأكرر وأعيد ، فقد ما قال الناس قد يحلو المكرر ، ويلد المعاد .

ويذكرني موقفى هذا موقف أستاذ من أساتذتنا الأجلاء ، الذين كنا نتلقى عنهم علوم الترية بانجلترا ، فقد دعى مرة من قبل جماعة عليية محترمة ، لها اهتمام بالحركة التعليمية فى البلاد الانجليزية أن يلقي محاضرة فى موضوع يهم المعلمين خاصة ، والمشتغلين بشؤون الترية عامة ، فلبى الدعوة ، وسمع بهذه المحاضرة خلق كثير ، فنفروا لاستماعها جماعات ، واجتمع بمدرج المحاضرات مئات من المعلمين ، الذين كانوا يمثلون مراحل التعليم المختلفة فى البلاد ، وغيرهم من طلاب العلم ، والباحثين عن الحقيقة حبا فيها . وافتتح المحاضر كلامه بقوله ما ترجمته « أنصح الذين كلفوا أنفسهم مشقة الحضور إلى هذا المكان ليسمعوا نظرية جديدة ، أو رأيا لم يسبقنى إليه أحد ، أن يتركوا أما كنهم ، ويذهبوا إلى ديارهم ، فاني أخاف عليهم لوعة اليأس ، ومضض الانتظار ، ومرارة الخيبة » .

وأنا لا بد أن أكتب ، ولكنى لن أسجع فى القول ، ولن أنمق الكلام ، ولن ألقأ إلى الزخرف فيه ، ولن أهيم فى أودية الخيال . سأكون صريحا إلى أبعد حدود الصراحة ، وسأكون منطقيا ، أرتب المقدمات ، وأستخلص منها النتائج ، وسأرى الواقع فى لونه الطبيعى ، مجردا من كل صناعة . أماى وأنا أكتب هذه الكلمة الأجزاء الأربعة التى صدرت فى العام الأول من حياة الصحيفة ، يتردد فيها بصرى ، فينتقل من جزء إلى جزء ، فأشاهد صورة رائعة من صور النمو والتدرج فى مدارج الكمال ، ومثلا عاليا مما ينتجه الاخلاص فى العمل ، والرغبة فى إتقانه ، والتعاون فى القيام به ، وما كنت أحسب ونحن نعالج إصدار الجزء الأول أن الصحيفة ستصل إلى هذا المستوى فى مثل هذا الأجل القصير ، فشكر الله على توفيقه ، ولينهى أبناء دار العلوم تضافرهم ، واتجاه رغباتهم جميعا نحو غرض واحد - هو خدمة اللغة والبلاد ، بتقويم ما التوى من الألسنة ، وتصفية الألفاظ

والأساليب مما شابهها من عجمة ، ونشر الآداب العربية قوية صافية ، تفيض على القراء الحياة جديدة فنية ، ويتجلى لهم فيها ألوان الجمال في العالم ، وتبعث في الجيل الحاضر والأجيال المتتابعة - إن شاء الله - روحا طاهرة زكية باصلاح المعوج من شئون التعليم ، بما تذيع من نظريات التربية ، وأساليب التدريس ، ومبادئ الاجتماع .

تصفح الجزء الأول من الصحيفة ، ثم انتقل منه إلى الثاني والثالث والرابع ، تدرك مبلغ ذلك التضافر بين أبناء دار العلوم على اختلاف أقدارهم ، فهذا مقال طالب لا يزال بعد بين جدران المدرسة ، يرشف العلم من ذلك المعين العذب ، فان تقرأه تجد فيه الفتاء والقوة والطموح والآمال العذاب ، وأحلام الشباب ، وذاك مقال شيخ في الستين من العمر أو يزيد ، يمتزج فيه النشاط بحكمة الدهر ، وتجربة العمر ، والفكر الصائب ، والرأى السديد ، وهنا فضل ممتع في فنون الشعر التي تناولها الملك الضليل ، حامل لواء الشعراء وزعيمهم في العصر الخوالى ، وهناك تحقيق تاريخي يتجلى فيه طابع أسيخ دار العلوم رواد العلم والأمناء على الحقيقة . وبعده باب فيما استحدث أهل الجيل من مذاهب الأدب تظهر فيه استقامة الفكر وسلامة الذوق ، وقوة الحججة ، وبلاغة العبارة ، والتمكن من صناعة الكتابة ، وبجانبه قصيدة جاش بها صدر شاعر ، فجرت على لسانه حكمة خالدة ، ومثلا سائرا ، ووحيا صادقا ، وعاطفة شريفة . وهناك أغنية مرحة من أغاني الربيع ، أرسلها قلب كبير مليء بالجميل من اللحن ، يرى من فنون الجمال في هذا الوجود ما لا يراه شيخ أثقلت ظهره أعباء الحياة ، وذلك فصل دمجته يراعة تصدر فيما تكتب عن عقل راجح متزن ، عالم بشئون التربية ، بصير بمشاكلها ، خير بكل جديد فيها ، يعلمه ويرى أين من رأى العين وجوه تطبيقه في بلادنا المصرية .

لا تضلُّ الشعوبُ مصباحها العلمُ يُوَاخِيهِ راسخُ الإيمانِ
 فإذا أطفئ السراجُ فمِنُّ وضلالٌ ما تبصرُ العيانِ
 أين آلُ العباسِ ريحانةُ الدهرِ وأين الكرامُ من مروان ؟
 خفت الصوتُ لا البلادُ بلادُ يوم بانوا ولا المغاني مغاني
 أزهرت في حمام الضادُ حيناً وذوت بعدهم لغير أوان
 إن أصاحت فالقولُ غيرُ فصيحٍ أورتُ فالوجوه غيرُ حسان
 فضت نحو مصر مثل قطاةٍ فزعتها كواسرُ العقبان
 يكدرُ العيش مرةً ثم يصفو كم لهذا الحياة من ألوان
 ثم هبت زعازعُ تركتها بين مرِّ الأسى وذلِّ الهوان
 وإذا نهضةٌ تدب بمصرٍ كديب الحياة في الأبدان
 وإذا اليومُ باسمُ والليالي مشرقاتُ والذهرُ ملقى العنان
 وإذا الضادُ تستعيدُ جمالا كاذ يقضى عليه ريب الزمان
 نزلت في حمى فؤادٍ فاضحت من أياديه في أعزِّ مكان
 ملك شاد للكنانه مجداً فسمت باسمه على البلدان
 كلَّ يوم يمدُّ للعلم كفاً خلقت للوفاء والإحسان

إن دار العلوم بنيةُ إسماعيل تزهي به على كل باقى
 من يسامى أبا المواهب والأشبال في فيض جوده أويديانى ؟
 هي في مصر كعبةٌ بعث الشرُّ قوا إليها طوائف الركبان
 قد أعادت عهد الأعراب في مصر إلى ناعم من العيش هانى
 وأظلت بنت الفدافد والبيد بأفياء دوحها القينان

درجت بين فتيه وشيوخ كلهم ينتمى إلى سحبات
وأطلت من الحباء عليهم فسبتهم بسحرها الفتان
فُتِنُوا بِالْعَذِيبِ وَالسَّفْحِ وَالْجَزْعِ وَوَادَى الْعَقِيقِ وَالصَّيْهَانِ
يَتَلَقَّوْنَ وَحِيَهَا كُلِّ حِينٍ وَيَنَاجُونَ طَيْفَهَا كُلَّ آنٍ
وَيَغْنُونَ بِاسْمِهَا مِثْلَ مَا غَنَّى زَهْرٌ بِسِيرَةِ ابْنِ سَنَانٍ
نَثَرَتْ دُرَاهَا الْفَرِيدَ فَكَانُوا أَسْرَعَ النَّاسِ فِي التَّقَاطُفِ الْجَمَانِ

رب شيخ أقى سواد الليالى ساهد العين جاهداً غير وانى
من بحوث إلى كتابة نقد ثم من معجم إلى ديوان
يقنص الآبدات عزت على الصيد فاست بين الربا والرعان
سارحات كأنها قطع الوششي يطرزن سندس القيعان
إن تسمعن نبأ غبن فى الريح كسر يسان بالكتمان
فاذا ما أمن يخرجن أرسا لا كحل نسطن من أرسان
كل جزء فى جسمن له عين على الشر أو له أذنان
لم يزل صاحبي يعالج منهن نفاراً مستعصيا ويعانى
فى فلاة لا تحمل الريح فيها غير رنات قوسه المرنان
كلما طار خلفن تهربن هباء فى غيب النسيان
فتراه حيناً كما وثب الليث وحيناً ينساب كالافعوان
وهى تلهو به فآنا تجافيه وآنا تعلّى له قدانى
مرة فى مدى يديه وأخرى ماله باقتناصن يدان
لم يقف نادماً يقرب كفيه فعال المجوف الحيران